مختارات مما لم ينشر

من شعر البحتري

لا يزال الكثير من أعلام الأدب العربي إلى اليوم في حاجة إلى دراسات مفصّلة عنهم، تنير تاريخ الأدب وتعين على فهم تياراته وتطوّرها خلال العصور؛ غير أن مثل هذه الدراسات تظل قصيرة اليد ضيّقة الأفق ما لم يسبقها نشر علميّ نقدي لآثار هؤلاء الأعلام، وهذا هو الأساس القويم لكل دراسة علمية منهجية. ومن خير الأدب أن يدرك العالم العربي هذه الحقيقة، فيتجه باهتمامه إلى نشر المخطوطات القديمة نشراً علمياً حديثاً يستعير أساليب من سبقنا من المستشرقين في هذا المضمار، وينهج نهجهم، وكان أن ظهرت أكثر دواوين الشعراء الفحول في طبعات علمية أنفق ناشروها المحققون فيها من الجهود ما لا يمكن تجديده، ولكن البحتري لا يزال إلى اليوم يشكو إهماله..

لديوان البحتري ثلاث طبعات:

١ — طبعة القسطنطينية (الجوائب) عام ١٨٨٢، وهي أقدم الطبعات وأصحها، وعليها المعوّل إلى اليوم.

٢ — طبعة القاهرة عام ١٩١١، وهي كثيرة التحريف والتصحيف وإن كانت أكمل من طبعة الجوائب، ذلك أن فيها شعراً كثيراً ليس في تلك الطبعة.

٣ — طبعة بيروت عام ١٩١١ أيضاً وهي طبعة مشكولة، شرح فيها الناشر بعض الألفاظ وحذف ما لم يُرضه من الشعر المخل بالأخلاق والأدب.

وهذه الطبعات الثلاث — بالجملة — تجارية، غاية في السوء، وهي — إلى ذلك — لا تحوي جميع إنتاج البحتري الشعري، ذلك أن هنالك جانباً ضخماً من شعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

البحتري بقرب من ثلاثة آلاف بيت لمّا يزل مخطوطاً ، وبعضه من جيّد شعره ، وأكثره يلقي أضواء نافعة على مراحل كانت غامضة من حياة الشاعر وفنه .

وعندما كنت في باريس ، قبل ثماني سنوات ، وافقت جامعة السربون على أن يكون موضوع رسالتي الأولى للدكتوراه البحث في حياة البحتري وفنه ، وعرضتُ آنذاك أن يكون موضوع الرسالة الثانية المكمّلة تهيئة طبعة علمية لديوان البحتري ، وكادت الموافقة تتم لولا أن أحد الأساتذة المستشرقين العائدين من مصر أعلن أن طبعة نقدية علمية للديوان ستصدرها دار المعارف في القاهرة في سلسلتها المعروفة (ذخائر العرب) ، وأن ظهور الجزء الأول لن يتأخر أسابيع قليلة !

أما أنا فاخترت مخطوطة أندلسية للرسالة الثانية ، وأما ديوان البحتري فقد مرّت الأسابيع والشهور والسنوات ولا نزال ننتظر الطبعة الجديدة منه .

ومنذ أيام كنت أبسط لمعالي الأستاذ الرئيس خليل مردم بك طرفاً من هذا الحديث ، فأخبرني بأنه عزم مرة على طبع ديوان البحتري ، كاملاً محققاً ، وبدأ العمل مدة ثم تركه عندما علم أن مصر تهيأت لطبع الديوان ، وانصرف إلى أعمال أخرى ، ولكن الديوان الموعود لا يزال أملاً حلواً يعيش في قلوب المنتظرين ...

وإلى أن يصدر الديوان ، وينشر فيه ما لم ير النور إلى اليوم من شعر البحتري ، رأيتُ أن أقدّم مختارات منه في مجلة المجمع العلمي العربي إلى القراء ، ليسمعوا منها أنغاماً جديدة لشاعر كبير ملأ آذان الأجيال العربية إبقاعاً جميلاً وموسيقى ساحرة . وسنوالي تقديم هذه المختارات إلى أن تفي مصر بما وعدت ، وتحقق آمال المنتظرين .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

- ١ -

قال البحتري [١] يمدح أبا الجيش خُمارَوَيْه [٢] بنَ أحمد بن طولون :

يكاد عاذلُنا في الحب يُغرينا فما لجاجُكَ في لوم المحبِّينا
نُلحى على الوجد من ظُلْمٍ فدَيْدَنُنا [٣] وجْدٌ نُعانيه أوْ لاحٍ يُعنِّينا

(١) القصيدة من البسيط ، عدد أبياتها ٣٩ ، نقلناها من مخطوطة ديوان البحتري بالمكتبة الوطنية بباريس (رقم ٣٠٨٦) الورقة : ٣٩٨ و — ٣٩٩ و ؛ وقد وردت بعض أبيات منها في الكتب المخطوطة والمطبوعة ، مما يؤكد صحة نسبتها إلى البحتري : فالكندي في كتاب الولاة وكتاب القضاة (طبعة بيروت ١٩٠٨) ص ٣٣٩ يذكر الأبيات : ٢٤ و ٢٥ و ٢١ و ٢٢ ، والشريف المرتضى يذكر في طيف الخيال (مخطوطة) الورقة ٤٧ ظ البيتين : ٣ و ٤ ، والمعري في عبث الوليد (مطبعة الترقي بدمشق ١٩٣٦) ص : ٢٣٥ — ٢٣٦ يذكر الشطر الأول من المطلع والبيتين : ١٦ و ٢١ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (مخطوطة الظاهرية) الجزء ١٧ الورقة ٤٢٧ يورد البيتين : ٢٤ و ٢٥ ، وكذلك يوردهما ابن العديم في زبدة الحلب من تاريخ حلب (بتحقيق الدكتور سامي الدهان) : ج ١ ص ٨٣ .

(٢) خُمارويه (٢٥٠ — ٢٨٢ هـ) صاحب مصر ، وليها بعد وفاة أبيه واتسع ملك الطولونية في أيامه من الفرات إلى بلاد النوبة ، ومات مقتولاً في دمشق (ابن خلكان — طبعة محيي الدين عبد الحميد : ٢ / ٢٠ — ٢٢) .

(٣) في الأصل : قد بدتنا ، والفضل في تصويب قراءتها لأستاذنا الرئيس خليل مردم بك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إذا زَرُودُ (١) دنت منّا صرائمُها (٢) فلا محالةَ من زَوْرٍ (٣) يُوافِينا
بتنا جُنوحاً على كُثْبِ اللوى (٤) فأبى خيالُ (٥) ظَمْياءَ (٦) إلاّ أن يُحَيِّينا
وفي زرودَ تَبِيعٌ (٧) ليسَ يُمْهِلُنا تقاضياً وغريمٌ (٨) ليس يَقْضِينا
منازلٌ لم نُذَمِّمْ عهد مُغْرَمِنا فيها ولا ذُمْ يوماً عهدُها فينا
تَجَرَّمَتْ (٩) عنده أيّامُنا حِجَجاً معدودةً، وخَلَتْ (١٠) فيها لياليَنا

(١) زرود : رمالٌ بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة (ياقوت معجم البلدان طبعة بيروت ٣/١٣٩) .

(٢) جمع صريمة وهي القطعة من الأرض الرملية أو الأرض المحصود زرعها .

(٣) الطيف والخيال يُرى في النوم .

(٤) كُثْب اللوى والأصل كُثُب جمع كثيب وهو التل من الرمل ، وسكّن الوسط لضرورة الوزن ، واللوى في الأصل منقطع الرمل ، وهو اسم لواد من أودية بني سليم (معجم البلدان ٥/٣٣) .

(٥) في طيف الخيال : طيفٌ لظمياء .

(٦) اسم امرأة يذكره البحتري في نسيب قصيدة أخرى يمدح بها خمارويه :

سرى الطيفُ من ظمياءَ وَهْناً فمرحباً وأهلاً بمسرى طيف ظمياءَ من مسرى

(الديوان — طبعة مصر ١/١٢) .

(٧) التبيع : الذي يتبعك بحق يطالبك به .

(٨) الغريم : الدائن والمديون ، والمراد هنا الثاني .

(٩) تجرّمت الحجج : انقضت الأعوام بتمامها ، والحول المجرّم : التام .

(١٠) في الأصل : دَخَلت .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إنّ الغواني غداةَ الجزْعِ مِنْ إضَمٍ (١) تَيَّمْنَ قلباً مُعَنًّى اللُّبِّ محزونا
إذا قَسَتْ غِلْظَةً أكبادُها جَمَلَتْ تَزْدادُ أعطافُها من نعمةٍ لِينا
يلومُنا في الهوى من ليس يَعْذِرُنا فيه ويُسْخِطُنا من ليس يُرْضينا
وما ظننتُ هوى ظمياءَ مُنْزِلَنا إلى مُواتاةِ خِلٍّ لا يُواتينا
لقد بعثتُ عتاق الخيل سارِيةً (٢) مثلَ القطا الجُزُنِ (٣) يَتْبَعْنَ القطا الجُونا
يُكْثِرْنَ عن دَيْرِ مُرّانَ (٤) السؤال وقد عارَضْنَ أبنيةً في دير مارونا (٥)

(١) وادٍ بجبال تهامة ، وهو الوادي الذي فيه المدينة (معجم البلدان ١/ ٢١٤) .
(٢) في الأصل : شاربةً ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٣) القطا ضربان : كُدْريٌّ وجُونيٌّ ، والجَوْن : الأسود .
(٤) ديرٌ بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع ورياض حسنة ، يذكر ياقوت أنه كان ديراً كبيراً عامراً بالرهبان ، وينقل بعض شعر الصنوبري في وصفه (معجم البلدان ٢/ ٥٣٣ — ٥٣٤) ، وليس في المطبوع من الديارات للشابشتي شيء عن هذا الدير ، وكان لخمارويه قصرٌ بدير مرّان ، ويذكر ابن عساكر أن خمارويه « بعد نزوله القصر وفد إليه الملوك ، وانتجعته العرب ، وقصدته الشعراء من جميع الأمصار ، وقصده البحتري الشاعر فأنشده قصيدته » هذه . (انظر تاريخ دمشق ـ مخطوطة الظاهرية : ١٧/ ٤٢٧) وفي هذا القصر قُتل خمارويه سنة ٢٨٢ هـ (انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر لبدران : ج ٥ ص ١٧٨) .
(٥) دير القديس مارون : دير كان في مدينة الرستن ، أو فيما يجاورها ، على ضفة العاصي ، بين حمص وحماة ، وهو دير مشهور يقول فيه المسعودي : « دير مارون بنيان عظيم حوله أكثر من ثلثمائة صومعة ، فيها رهبان ، وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم ، فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن » انظر مقالة ليوسف اليان سركيس في مجلة المقتطف (المجلد ٣٣ السنة ١٩٠٨ ص : ١١٣ — ١١٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يَنْشُدْنَ في إرَمٍ (١) والبحرُ في إرَمٍ ... غنىً على سَيِّدِ السادات مضمونا
يُلفى النَّدى منه مَلْموساً ومُدَّرَكاً ... وكانَ يُفْقَد موهوماً ومظنونا
بادٍ بأنعُمِه (٢) العافينَ يَزْلِفُهم (٣) ... على الأشقاء (٤) فيها والقرابينا (٥)
نَيْلٌ يُحكِّمُ فيه المجتدون إذا ... شئنا أخذنا احتكاماً فيه ماشينا (٦)
ومُمْلِقين من الإحسان يَفْجَؤُهم ... ساهين عن كرم الأفعالِ لاهينا
إن لم يكن في جَدائهمْ نَزْرُ عارفةٍ ... تكفُّنا كان عُذرٌ منه يكفينا
وغابنٍ إنْ شرى حمداً بِمَرْغَبَةٍ ... رآه فيها بخيلُ القومِ مَغْبُونا
مظفرٌ لم نزلْ نلقى (٧) بطلْعته ... كواكبَ السعدِ والطيرَ الميامينا
يُمْسي (٨) قريباً من الأعداء لو وقعوا ... بالصِّينِ في بُعدها ما استَبْعَدَ الصينا

(١) إرم : اسم مدينة ، ويُريد بها البحتري دمشق (معجم البلدان ١/ ١٥٥) .
(٢) في عبث الوليد : بأنصفةِ .
(٣) زَلَفَ الشيء : قرّبه والمعنى أنه يقرّب السائلين على إخوته وجلسائه .
(٤) في الأصل : الأشقيا ، والتصويب عن (عبث الوليد) .
(٥) القرابين : جمع قربان ، وهو جليس الملك ، ويرى المعري أن البحتري واهم في نصب القرابين ، وحقه الخفض (عبث الوليد ٢٢٦) .
(٦) الأصل : شئنا وسُهّلت الهمزة .
(٧) في كتاب الولاة والقضاة : لم يزل يلقى .
(٨) في كتاب الولاة والقضاة جاء هذا البيت كما يأتي :

يمشي قريباً من الأعداء لو وقفوا ... بالصين من بعدها ما استبعد الصينا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تَشمِيرُ يقظانَ ما انفكّت عزيمتُه ... تريدُ أعداءه ذُلاً وتَوْهينا

إنّي رأيتُ[1] جيوشَ النصر مُنْزَلةً ... على جيوش أبي الجيش بنِ طولونا

يومَ الثّنِيّةِ[2] إذ يَثْني[3] بِكَرّته ... في الرَّوْعِ خمسين ألفاً أو يزيدونا

والحربُ مُشْعَلَةٌ تَغْلي مراجِلُها ... حيناً ويُضْرَمُ ذاكي جمرِها حِينا

يغدو الورى وهُمُ غاشُو[4] سُرادِقِهِ ... صِنْفَيْنِ من مُضْمِري خَوْفٍ وراجينا

والناسُ بين أخي سَبْقٍ يَبِينُ به ... وفاترينَ من الغاياتِ وانِينا

---

(١) في (كتاب الولاة) و (تاريخ دمشق) : وقد رأيتُ ، وفي (تاريخ حلب) : وقد تدلّتْ جيوشُ ...

(٢) المراد ثنيّة العُقاب وهي ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطؤها القاصد من دمشق إلى حمص (معجم البلدان : ٢ / ٨٥) والبحتري يشير إلى المعركة التي جرت هناك سنة ٢٧٤ هـ بين خمارويه ومحمد بن ديوداذ بن أبي الساج المعروف بالأفشين ، بعد أن نكث عهده معه (ابن العديم : ١ / ٨٢ — ٨٣ ، وانظر ابن الأثير ـ طبعة مصر ١٣٥٣ هـ ـ : ٦ / ٦٣ في حوادث سنة ٢٧٥ هـ) وانتهت المعركة بهزيمة ابن أبي الساج وانتصار خمارويه .

(٣) في (تاريخ حلب) :

. . . . ثنى بكرته خمسين ألفاً رجالاً أو يزيدونا

وفي (كتاب الولاة) و (تاريخ دمشق) :

. . . . ثنى بكرته في النقع خمسين ألفاً أو يزيدونا

(٤) جمع (غاشٍ) جمع المذكر السالم ، وغَشِيَه : أتاه وقصده .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كما رأيتَ الثلاثاءاتِ (١) واطئةً ... من التخلُّفِ أعقابَ الأثانينا (٢)
عَمَّرَكَ اللهُ للعلياءِ تَعْمُرُها ... وزادكَ اللهُ إعزازاً وتمكينا
ما انفكتِ الروم من همٍّ يُحَيِّرُها ... مذ جاورتْ عندكَ العزّاءَ (٣) والدِّينا
تدنو إذا بعدوا عند اشتطاطهمُ (٤) ... كيداً وتبعُدُ إن كانوا قريبينا
حتى تركتَ لهم يوماً نسختَ به ... ما يأثُرُ الناسُ من أخبارِ صفّينا (٥)
مصارعٌ كُتِبتْ في بطن لؤلؤةٍ (٦) ... من ظهرِ أنقرةَ (٧) القُصوى وطِمِّينا (٨)

(١) جمع الثلاثاء ، والحق أن يقول الثلاثاوات ، لأن الثلاثاء عندهم - كما يقول المعري في عبث الوليد ص ٢٢٦ - مؤنث ، وحُكي في اللسان عن ثعلب : مضت الثلاثاء بما فيها ، فأنّث ، ولم يحك سيبويه حمراءات في جمع حمراء وقد حكاه الكسائي ، فيجوز على هذه الحكاية .

(٢) يقول المعري : حكاها بعض الناس في جمع الاثنين ، وحُكيت أيضاً (الأثاني) بغير نون (انظر عبث الوليد ص ٢٢٦) .

(٣) العزّاء : السنة الشديدة ، وقيل هي الشدّة (اللسان) .

(٤) اشتطاطهم : جورهم وبعدهم عن الحق .

(٥) موضع بقرب الرّقة على شاطئ الفرات ، وفيه جرت الوقعة بين علي ومعاوية سنة ٣٧ هـ ، وقتل فيها سبعون ألفاً ، ودامت المعركة مائة يوم وعشرة أيام وكانت الوقائع تسعين وقعة . (معجم البلدان ٣ / ٤١٤ وانظر الطبري حوادث سنتي ٣٦ و ٣٧ هـ) .

(٦) لؤلؤة : قلعة قرب طرسوس ، غزاها المأمون وفتحها (معجم البلدان ٥ / ٢٦) وفي سنة ٢٨٠ هـ دخل أحمد بن أبا طرسوس للغزاة من قبل خمارويه بن احمد بن طولون (ابن الأثير : ٦ / ٧٧) وفي سنة ٢٨١ هـ دخلها طغج بن جف لغزو الصائفة من قبل خمارويه فبلغ طرابزون (ابن الأثير : ٦ / ٧٨) .

(٧) أنقرة : مدينة في الثغور ، كان المعتصم قد فتحها وهو في طريقه إلى عمورية سنة ٢٢٣ هـ (معجم البلدان ١ / ٢٧٢ وانظر حوادث سنة ٢٢٣ في الطبري) .

(٨) طمّين : موضع ببلاد الروم (معجم البلدان ٤ / ٤١) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فَأَسْلَمْ لِتَجْهَدَهُمْ غَزْواً وتُغْزِيَهُمْ جيشاً[١] وتُتْبِعَهُ المأمولَ هارونا[٢]

أمّا الحسينُ[٣] فما آلاكَ مجتهداً وليس تألوه تفخيماً وتَزْيينا

ترضىٰ به حين لا يُرضيك مُدْبِرُهُمْ مباركاً صادقَ الإقبالِ مَيْمُونا

أدّىٰ الأَمانةَ في مالِ الشآمِ فما تلقاه إلاّ أمينَ الغيبِ مأمونا

تسمو إلى الرتبةِ العُليا محاسنُه فما تريٰ وَسَطاً منها ولا دُونا

---

(١) يريد ابنه جيش بن خمارويه ، وقد ولي مكان أبيه بعد قتله عام ٢٨٢ هـ وعزله القواد بعد تسعة أشهر من ولايته (ابن العديم ١/٨٦ وابن الأثير ٦/٨٢) .

(٢) هارون بن خمارويه ، ولاّه الجندُ بعد عزلهم أخاه جيشاً سنة ٢٨٣ هـ ، وبقتله سنة ٢٩٢ انقرض ملك الطولونية (ابن الأثير ٦/١١٠) .

(٣) هو الحسين بن أحمد المادرائي المعروف بأبي زنبور من رجال دولة خمارويه ، يسميه البحتري وزيراً (مخطوطة باريس الورقة ١٧٨) والمؤرخون يسمون ابن أخيه : محمد بن علي بن أحمد المادرائي وزيراً لخمارويه (تاريخ بغداد ٣/٧٩) ، ويجمع الصابي بينهما ويذكر أنهما «ديرا أمور بني طولون في المال والرجال ، ولهما في الكتابة قدم وبالتدبير دربة» (انظر تاريخ الوزراء للصابي طبعة بيروت ص ٣٤٧ – ٣٤٨) ، والأشبه أن يكون الحسين وزيراً لخمارويه مكلفاً بتدبير أمور دولته المالية في الشام ، والبحتري يثني على أمانته في مال الشام وحرصه . وقد لعب الحسين دوراً في إعادة مصر إلى الحكم العباسي (تاريخ الوزراء للصابي ص : ٩٢) وأصبح عاملاً على مصر في خلافة المقتدر ، وأشير على المقتدر أن يستوزره لولا معارضة نصر الحاجب (المصدر السابق ٣١٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ملاحظات ونظرات في القصيدة :

١ — هذه القصيدة واحدة من أربع ، مدح بها البحتري خُمارويه بن أحمد ابن طولون ، وهي كلّها لا تزال إلى اليوم مخطوطةً ، إلاّ واحدة منها نجدها في طبعة القاهرة (ج ١ ص ١٢) ولم يلتفت الباحثون إليها لورود اسم خمارويه في التقديم لها مصحّفاً إلى (حمادويه) ، ومن هنا ظلّت فترة اتصال البحتري بالطولونيين مجهولة لدى كل من يدرس الشاعر وفنه من ديوانه المطبوع ، ولا تصل يده إلى المخطوطات الكاملة للديوان .

٢ — نظمت هذه القصيدة بعد سنة ٢٧٩ هـ ، في المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر ، ففي هذه السنة يرثي البحتري الموفق ويمدح المعتضد بعد أن بويع بالخلافة بقصيدة لا تزال مخطوطة (مخطوطة الديوان بباريس الورقة ٣٩٥ ظ — ٣٩٦ و) ويسأل الشاعر فيها أبا العباس المعتضد أن يُقدّمه إلى خمارويه بكتاب توصية منه :

أموجهي أنت إيصاءً وتقدمةً يزكو بها سببي عند ابن طولونا

وكان النزاع بين العباسيين والطولونية قد انتهى باعتراف خمارويه بسلطة الخليفة المعتضد ، وتزويجه من ابنته قطر الندى ، وإرساله الهدايا العظيمة من مصر إليه (انظر الطبري وابن الأثير : حوادث سنة ٢٧٩ هـ) .

٣ — من حسن حظ البحتري أن خمارويه لم يبلغه هجاء الشاعر لأبيه أحمد ابن طولون ، قبل أكثر من عشر سنوات ، ذلك الهجاء المقذع ، إذ يتهمه بأنه ابن صفاح ، يُعزى لأبوين : طولون ويلبخ :

إذا ما طلبنا خُطّة النّصفِ ردّها علينا ابنُ خُبثٍ فاحش وفسوقِ
وعاهرةٍ أدت إلى شرّ عاهرٍ مشابهِ كلب في الكلاب عريقِ
ليَلْبَخَ أو طولونَ يُعزى فقدحوت على اثنين : زوجٍ منهما وعشيق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(انظر الديوان — الجوائب : ٢ / ٧٩ وانظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي : ٣ / ٣) ولو عرف خمارويه موقف البحتري هذا من أبيه لما وجد الشاعر لديه عطاءً ولا إكراماً .

٤ — تُلاحظ في القصيدة أقسام ثلاثة متميّزة :

ا — النسيب : ويشغل الأبيات (١ — ١١) وعلى الرغم من أنه غزل تقليدي فنيه حرارة قلب متقدّ لم تطفئ شعلته شيخوخة جاوزت السبعين !

ب — مدح خمارويه : ويشغل الأبيات (١٢ — ٣٥) وهو أهم أجزاء القصيدة ، وفيه يصف الشاعر إقباله على دمشق ، ينشد الغنى المضمون لدى بحر جواد يقرّب السائلين المجتدين ويحكّمهم في ماله ليأخذوا ما يشاؤون ، فهو يشتري الحمد بالعطاء ، وهو مظفّر ميمون الطلعة شجاع غيرُ هيّاب ، ينال من أعدائه مهما يبعدوا ، ويزيدهم إذلالاً وإضعافاً . ويمجّد الشاعر انتصار ممدوحه في معركة (ثنيّة العُقاب) فالملائكة كانت تؤيد جيشه وتشد أزره ، فيهزم ابن أبي الساج وخمسين ألفاً من رجاله أو يزيدون ، في حرب حامية تغلي مراجلها ويضرم جمرها . ويصف البحتري أمل الناس في ممدوحه وهيبة بعضهم له ؛ فهم بين راج وخائف ، والناس يتفاوتون بالهمم ، فمنهم السبّاقون إلى الغايات ومنهم المتخلّفون الذين يجيئون في الأعقاب ، كما تجيء أيام الثلاثاء في أعقاب أيام الاثنين . ثم يدعو الشاعر للممدوح بطول العمر والزيادة في الإعزاز والمجد والتمكين ، ويتحدث عن بطولاته في جهاده للروم عند ثغر لؤلؤة ، ويسأل له دوام السلامة ليُرسل ولديه جيشاً وهارونا غازيين للروم ، يقودان كتائب الجهاد في الثغور .

ج — مدح وزير خمارويه الحسين بن أحمد : ويشغل بقية أبيات القصيدة (٣٦ — ٣٩) ويصف الشاعر هنا أمانة الوزير في حفظ أموال الشام ، واجتهادَه في إرضاء سيّده خمارويه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٥ — انتقل البحتري من النسيب إلى المديح انتقالاً مفاجئاً ، ولم يحسن التخلّص ، وغالباً ما يفعل البحتري ذلك في قصائده ، وقد أهمل الشاعر في مديح خمارويه التعرض إلى رفعة النسب ، وقصر مديحه له على تمجيد كرمه وشجاعته ، ولعلّ الحديث عن النسب يصل بالشاعر إلى والد خمارويه ، أحمد ابن طولون ، وموقف البحتري منه موقفه كما ذكرنا منذ قليل ! وأما الجمع في المديح بين الأمير ووزيره فمن دأب البحتري أن يفعل ذلك في قصائد كثيرة من شعره ، ليملك قلب الوزير (في بعض أماديحه للمتوكل يمدح الفتح بن خاقان الديوان — الجوائب ١/٣ ، ويعرض لمدح الوزير أبي صالح ابن يزداد في مديحه للمستعين : ١/٧٥ ، ويمدح وصيفاً في مديحه للمعتز : ٢/٢٤٨ كما يمدح الوزير عبيد الله بن يحيى في مديحه للمعتمد : ١/١٠٦) ولا ضير من الإشارة إلى ما ينتظره البحتري من وراء تمجيده لوزير مالية خمارويه في الشام ، فهناك خراج أملاكه الواسعة في منبج ، وقد حرص الشاعر طوال حياته على دفع الوزراء والكتاب إلى إسقاط خراجه أو جانب منه !

٦ — هذه القصيدة لا تتأخر عن الطبقة الجيدة من شعر البحتري ، وهي خير دليل على أن شاعرية البحتري ظلّت الى آخر مراحل حياته تمتاز بالقوة والخصب ، ويكفينا عند تقويم هذه القصيدة أن نذكر أنها هي المنوال الذي نسج عليه بحتريّ الأندلس ابن زيدون قصيدته النونية في التشوق إلى ولّادة بنت المستكفي (ديوان ابن زيدون — شرح كيلاني وخليفة : ٤ — ٨) :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ونابَ عن طيب لُقيانا تجافينا

وأن نذكر أن الشعراء سيوالون معارضتها (ديوان ابن زيدون : ٤٠١) إلى نونية شوقي في العصر الحديث : (الشوقيات ٢/١٢٧ — ١٣٢) :

يا نائح الطلح أشباهٌ عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

(يتبع)

الدكتور صالح الأشتر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net